

تداخل الأنساق الثقافية في خطاب أدب الطفل الجزائري المعاصر
(مقاربة نقدية لقصة قصيرة)

*The intertwining of cultural patterns in the discourse of contemporary
Algerian children's literature
(a critical approach to a short story)*

عمّاري فاطمة¹

مخبر الدراسات الأدبية والنقدية.

تاريخ النشر: مارس 2024	تاريخ القبول: 2024-02-20	تاريخ الإرسال: 2023-12-28
------------------------	--------------------------	---------------------------

المخلص:

تحاول هذه الدراسة تحريّ تجليات الأنساق الثقافية في خطاب أدب الطفل في الجزائر في الزمن الراهن، من خلال تفصّي تداخل هذه الأنساق ورصد تنوّع مظاهرها، وما بُثّ فيها من قيم أدبية ومقومات فنيّة جماليّة وغايات ثقافيّة تسهم بشكل مباشر أو غير مباشر في تكوين اللبّات الأساسيّة لشخصية الطفل الجزائريّ، وذلك من خلال مقارنة نقدية لقصة قصيرة للكاتبة الجزائرية جميلة يحيوي الموسومة بـ "جاد وجود والأرنب لولو"، الصادرة عن دار الإخلاص والصواب لسنة 2022م، بحثا في القيم المبتوثة في الخطاب الإبداعيّ المعاصر الموجه للطفل الجزائريّ، إجابة عن تساؤل إشكاليّ هامّ يتمثل في: هل يمكن للسرد القصصيّ الموجه للأطفال التّأثير في عمليّة بناء شخصية الطفل الجزائريّ؟ وما هي وسائله في إثراء الخيال الإبداعيّ للطفل؟
الكلمات المفتاحية: الأنساق الثقافية، أدب الطفل، أدب جزائري معاصر ، جميلة يحيوي.

Abstract:

This study attempts to search for the manifestations of cultural patterns in the discourse of children's literature in Algeria at the present time, and to identify the literary values, aesthetic artistic components, and cultural goals that they carry, directly or indirectly, and their contribution to building the personality of the Algerian child, through a critical approach to a short story entitled "Jade and Jude and Lulu the Rabbit" by Algerian writer Jamila Yahyaoui, in answer to an important problematic question: Can telling stories directed at children affect the process of building the Algerian child's personality? a personality? What are its means of enriching the child's creative imagination?

Keywords: cultural patterns, children's literature, contemporary Algerian literature, Jamila Yahyaoui.

*** **

المؤلف المرسل: عمّاري فاطمة - ef.ammari@univ-blida2.dz

1. مقدمة:

تسعى هذه الدراسة لتحليل البنية الداخلية لخطاب أدب الطفل الجزائري المعاصر، من خلال دراسة المعاني العميقة والمضامين المبتوثة في قصة قصيرة للكاتبة الجزائرية جميلة يحيوي، وذلك بالتركيز على المدرجات الأدبية والثقافية في الإنتاج السردى الموجه للطفل الجزائري في الزمن الراهن، وأثرها في تشكيل

¹ جامعة البليدة 2- لونييسي علي، ef.ammari@univ-blida2.dz

وعيه التربوي وإدراكه الفكري للمواضيع المختارة في هذه القصص، إجابة عن تساؤل إشكالي هام: هل يمكن للسرد الموجه للأطفال التأثير في تكوين ثقافة الطفل الجزائري وبناء شخصيته في الزمن الراهن؟.

من خلال تقصي تداخل هذه الأنساق ورصد تنوع مظاهرها، وما بُثَّ فيها من قيم أدبية ومقومات فنية جمالية وغايات ثقافية تسهم بشكل مباشر أو غير مباشر في تكوين اللبّات الأساسية لشخصية الطفل الجزائري، خاصة وأنّ أدب الأطفال قد أضحي ظاهرة أدبية ثقافية فنية تتخطى الحدود اللغوية والشّخص الخيالية والأنماط الكتابية الحوارية أو السردية أو الوصفية، إلى غايات ومرام ذات أبعاد ثقافية واجتماعية وسياسية مدروسة وممنهجة.

تسلط هذه المقاربة التحليلية الضوء على دراسة تداخل الأنساق الثقافية في قصة الطفل الجزائري، وذلك من خلال دراسة قصة قصيرة للكاتبة الجزائرية جميلة يحيوي الموسومة بـ "جاد وجود والأرنب لولو"، الصادرة عن دار الإخلاص والصواب لسنة 2022م، بحثا في القيم المبنوثة في الخطاب الإبداعي المعاصر الموجه للطفل الجزائري، إجابة عن تساؤلات إشكالية هامة تتمثل في: هل يمكن للسرد القصصي الموجه للأطفال التأثير على شخصية الطفل الجزائري في الزمن الراهن؟ وإلى أي مدى يستطيع هذا الأدب دعم عملية بناء ثقافة الطفل الجزائري؟ وما هي وسائله في إثراء الخيال الإبداعي للطفل وشحن وجدانه وتكوين الذوق الأدبي لديه؟، خاصة وأنّ الطفل يستقبل كلّ ما يُرسل إليه من كتابات إبداعية وكلّه أمل في إيجاد الأجوبة الشافية لكل ما يسري في خلدّه من تساؤلات.

2. الطفل والسرد القصصي:

يستقبل الطفل كلّ ما يرسل إليه من كتابات إبداعية بكلّ ما تحمله أحاسيسه من رغبات في الاطلاع والاكتشاف، فيتلقّى بخياله أعمالا قصصية ومسرحية وقصائد غنائية تسهم في تشكيل اللبّات الأولى لشخصيته وتنمية ملكته الذوقية، بما يتناغم مع فكره وبيئته والنطاق العام لنشأته.

لذا يسعى معظم كتاب الأعمال الأدبية الموجهة للأطفال إلى تزويد النّشء بمنظومة من القيم والمبادئ التي تفعّله اجتماعيا، وتكسبه حسّا إبداعيا وذوقا أدبيا وخيالا واسعا وإحساسا مرفها بقيمة الأشياء وحقيقتها، وهو ما يفتح المجال أمام الطفل لـ " تحقيق النّقة بالنفس وروح المخاطرة في مواصلة البحث والكشف وحب الاستطلاع"¹، لذا يمثل أدب الطفل اتجاها مهما من اتجاهات الأدب المعاصر عامّة، تكمن أهميته في الدور الذي يخوضه بناءً للفرد، والذي تتشكّل سمات شخصيته الأولية من خلال ما استمع إليه وشاهده من أدب في مراحل عمره المبكرة.

إذ يقوم أدب الطفل بدور هام في إثراء لغة الأطفال وتطوير تفكيرهم، بما يحققه من تهيئة نفسية ووجدانية وعلمية وعملية، عبر صقل مهاراتهم وتدريبهم على دقة الملاحظة وابتكار الحلول وحلّ الأحاجي والألغاز وما إلى ذلك، بما يقوي اعتزازهم بالمقومات الوطنية والدينية واللغوية والتاريخية والتراثية والفنية، كما يعزز لدى الطفل روح التسامح الإنسانية وتقبل الآخر.

و تعدّ القصة من أهمّ الأنواع الأدبية التي تميل إليها نفوس الأطفال، بما تحمله من إثارة وتشويق وخيال وطريقة سرد مميزة، يعرفها أحمد طعيمة فيقول: "يقصد بقصص الأطفال كلّ ما يكتب بقصد الاستمتاع والنّسلية والتثقيف، ويروي أحداثا وقعت لشخصيات معينة سواء كانت هذه الشخصيات خيالية أم واقعية"²، فالقصة القصيرة من الأشكال الأدبية الغنية بالمعاني والدلالات، بالرغم من قصر طولها تعدّ قادرة على إيصال العديد من الأفكار وبشكل مركز، خاصة وأنّ العناصر السردية في القصة تربط معنى الخطاب بالسياق السوسيوثقافي، معبرة عن العلاقات الاجتماعية والقيم الثقافية الخاصة بالوسط الذي أنتج وتداول القصص³.

ولا يختلف القسم الخاص بقصص الأطفال عن الإطار العام للقصة كمبنى سردي تحكمه منظومة القيم المجتمعية وأنساقها الثقافية، فهي نوع أدبي يتوازن في تفرّعاته الإبداعية مع تلك الموجودة في أدب الكبار، غير أنّها موجهة لفئة عمرية محدّدة⁴، فأدب الطفل هو "ذلك النوع الأدبي المستحدث من جنس أدب الكبار، شعره،

ونثره، وإرثه الشفهي والكتابي، بحيث يراعي المبدع المستويات اللغوية والإدراكية عندما يقوم بالتأليف أو المعالجة للطفل في سائر ألوان التعبير الأدبي، ومن ثم يرقى بلغتهم وخيالاتهم ومعارفهم واندماجهم مع الحياة بهدف التعلق بالأدب وفنونه⁵، تحقيقا لغايات تربوية ولغوية ونفسية واجتماعية وفنية جمالية.

وتحقيقا لهذه الغايات يتقيد كُتّابها بوسمها بمنظومة من الخصائص الفنية، فهي فلا تكتب بلغة بسيطة جدا قد يراها الناشئ استهانة بمعارفه اللغوية فينصرف عنها، ولا تكتب بلغة صعبة لا يستطيع الطفل التواصل معها فينصرف عنها كذلك⁶، فلا بد فيها من التزام مجموعة ضوابط فنية، نذكر أهمها:

- التزام الأسلوب الواضح.
- اعتماد التشويق والإثارة والخيال.
- توظيف السرد والوصف والحوار بما يتناسب والقدرات العقلية للطفل.
- الابتعاد عن التعقيد اللفظي وتناثر الحروف والعامية.
- تجنب الفقرات الطويلة.
- الحرص على التقارب العمري لشخصيات القصة وأبطالها مع سن الطفل القارئ.
- تزويد الشخصيات بالقيم.
- ويستحسن كذلك اعتماد اللغة السهلة والابتعاد عن الألفاظ الغريبة وعن الصور المجازية الغامضة، مع البساطة في تشكيل ملامح الشخصيات البطولية، وفي حبك الأحداث المتنامية، كي يحصل التفاعل المنشود، فيستفيد الطفل القارئ من التجارب المبنوثة في القصة القصيرة، ومن الحلول التي يقدمها أبطالها في حياته الواقعية، بما يحقق أغراضها التربوية والاجتماعية العديدة، والتي يمكن ذكر بعضها على سبيل التذكير:
- إشباع حاجات الطفل الوجدانية والفكرية ومساعدته على البوح بانشغالاته النفسية والاجتماعية والإجابة عن تساؤلاته الذهنية.
- تلبية حاجة الطفل في تقدير ذاته وإثبات كينونته وتقوية ثقته بنفسه وتشكيل شخصيته.
- تنمية القدرات اللغوية للطفل وإثراء معجمه اللغوي بما يحفز على التعبير والقراءة والاستيعاب.
- تحفيز الطفل على الإبداع والابتكار وتجسيد طموحاته ورغباته وأحلامه المستقبلية.
- تشجيع الطفل على الاعتماد على نفسه في تسيير حياته اليومية، عن طريق الاستفادة من التجارب والصعوبات التي يمرّ بها الأبطال في القصص.
- تنمية المهارات الاجتماعية والانفعالية وتفعيل المبادرات وروح المشاركة والتواصل لدى الطفل.
- تقوية الشعور بالانتماء الوطني والقومي للطفل وغرس المبادئ الدينية والقيم الإنسانية والأخلاق الفاضلة فيه.
- تعديل سلوكيات الطفل وتأطير ميولاته النفسية واكتسابه القدرة على التفريق بين الصواب والخطأ.
- وتصب هذه الغايات كلها في مسعى أساسي هدفه خلق عالم أدبي طفولي يؤسس لبناء أفراد متفتحين اجتماعيا ومتفاعلين مع الواقع الحياتي، بتوسيع مدارك الأطفال وإنماء قدراتهم التخيلية، وتطوير مهاراتهم اللغوية وتفاعلاتهم اجتماعيا، بما يتلاءم مع مستوياتهم وأعمارهم وقدراتهم على الاستيعاب وفق طبيعة العصر، وما يتناسب مع المجتمع الذي يعيشون فيه⁷.
- فالقصة القصيرة الموجهة للطفل تتضمن خلاصة تجارب إنسانية متعلقة بواقع القاص وأفكاره، التي وزعها كأحداث بين شخصيات خيالية عديدة تنتقل بين أزمنة وأمكنة مختلفة، تجعل الطفل يبحر في عوالم عديدة يستشعرها خياله الطفولي، بحثا عن إجابات لأسئلته واستفساراته المرتبطة بالحياة الاجتماعية وعالم الطبيعة والكون.

3. السردية التربوية التعليمية في الأدب الجزائري المعاصر:

لقد عرف أدب الأطفال الجزائري في مجال سرد القصة والرواية والحكاية مجموعة من الكتاب النشطين، منهم: رابح خدوسي، وجميلة زنيبر، وجيلالي خلاص، ومحمد الصالح حرز الله، وعبد العزيز بوشفيرات، سليمة ميليزي، وعبد الحميد سقاي، وعبد الوهاب حقي، وغيرهم من الكتاب الذين أسسوا دعائم أدب الطفل في الجزائر، وحملوها رسائل ذات غايات تربوية تعليمية دينية وتاريخية متنوعة، متكئين على منظومة القيم الدينية والمبادئ الأخلاقية التي تحكم المجتمع الجزائري، ومعتمدين على مصادر موروثة الحكائي الشعبي، منتهجين السبل الحكائية القائمة على الرمزية أو الواقعية أو قصص الخرافة والأساطير والقصص الخيالية، أو التجسيد الحيواني أو الخيال العلمي، وغيرها من طرائق الكتابة السردية الإبداعية.

وتعد الأستاذة جميلة عبد الرحمن يحيوي* من ضمن الكتاب الذين عملوا على مواصلة مسيرة من سبقوهم في مجال القصة القصيرة الموجهة للأطفال واليافعين، إذ تعتبر من أبرز رواد أدب الطفل الجزائري المعاصر، وذلك نظراً لجودة أعمالها وعدد قصصها المنشورة والتي فاقت الخمسين قصة، وأيضاً للجوائز العربية والوطنية التي فازت بها، نذكر منها: المركز الثاني في مسابقة أوقاف الكويت لقصص الأطفال في مجال الوقف والعمل الخيري، وذلك في طبعتها الأولى لسنة 2013م، عن قصتها "زيتونات جدتي زهرة"، والمركز الثالث للمسابقة نفسها في طبعتها الثالثة لسنة 2017م، عن قصتها "صاحب المظلة السوداء"، كما نالت المركز الثالث في مسابقة ديوان العرب في دورته التاسعة لسنة 2023 عن القصة القصيرة الخاصة بأدب الطفل، عن قصتها "نظارة بانه"، وجائزة وطنية حازتها من دار الثقافة لولاية الوادي سنة 2013م.

ومن بين إنتاجاتها القصصية التي أغنت بها رصيدها الإبداعي في مجال أدب الطفل: المجموعة القصصية مغامرات رامي، والعديد من القصص الأخرى نذكر منها: المهرج فوفو، وسيم يبحث عن جدة، الصبار والطيب، أريد قوس قزح، وغيرها من القصص، ولها روايتان لليافعين صدرتا عن دار "سما" الإماراتية، صدرت الرواية الأولى بعنوان "فارس والقوة الخفية" سنة 2016، وروايتها الثانية بعنوان "أشجار الأحلام" وصدرت سنة 2017م وهي رواية خيال علمي.

وتفصح الكاتبة عن رؤيتها الخاصة لأدب الطفل خلال محاضرتها التي ألقته في ندوة "أدب الطفل بين الواقعي والمخيّل"⁸، التي أقيمت أثناء مهرجان الشارقة القرائي للطفل في طبعته الثامنة لسنة 2016، معتبرة الطفل هو أهم وأدق شريحة في المجتمع والأكثر هشاشة في الوقت نفسه، وبالتالي لا بد من الاهتمام بها كثيراً، من خلال دعمها بما تحتاجه وحماية حقوقها، مؤكدة أن كثير من الأمور تتداخل لتكوّن شخصية الطفل المستقبلية بدءاً من الوالدين وانتهاء بالمجتمع، فمن الضروري والواجب اختيار ما نقدمه له، وفق ما يحتاجه من معلومات تتناسب مع مرحلته العمرية، التي لو تجاوزها دون حصوله على جرعاته المعرفية اللازمة لبناء ذاته فسنكون قد ظلمناه، وربما ينشأ ببعض النقائص التي لا يمكن تعويضها مستقبلاً.

وأشارت إلى أن الطفل في الزمن الراهن ذو قدرات ذهنية عالية، فهو لا يكتثر بأي شيء لا يثيري معرفته، ونوهت بدور العولمة في فتح أفاق المعرفة أمام الطفل، بما أتاحت له من وسائل غير تقليدية في تحصيل المعرفة تختلف كلياً عن الكتاب، مشيرة إلى أن "الفضائيات والإنترنت أصبحت مصدراً مهماً يستقي منها الأطفال معرفتهم"، داعية إلى ضرورة أن يقوم الوالدين بمراقبة كل ما يأتي من هذه المعرفة، لضمان حصول الطفل على المعرفة الإيجابية.

وأكدت على ضرورة الاعتناء بالطفل فكرياً ومعرفياً، لأنّ الطفولة هي مرحلة بناء الإنسان ثقافياً، والاهتمام بنموه المعرفي لا يقل أهمية عن الاهتمام بنموه الجسدي، محذرة من نتائج تأثير العصر التقني والإلكتروني على إقبال الطفل على التفاعل القرائي، داعية إلى بحث سبل تطوير الكتاب بطريقة تجاري متطلبات الطفل الحالية، التي تتواءم مع إفرازات العصر.

4. تجليات السرد القصصي في متن "جاد وجود والأرنب لولو":

تعد تجربة الكاتبة جميلة يحياوي في قصص الأطفال متنوعة التوجهات، فقد خاضت في الموضوعات التربوية التعليمية، كما عالجت مواضيع الخيال العلمي، منتجة عددا كبيرا من المؤلفات الموجهة للطفل الجزائري، من أهم قصصها القصيرة المعاصرة: اللص والعجوز/ الطريق إلى الكنز/ دمية من قماش/ كوكي الكلب الوفي/ عاقبة الكذب/ القناعة كنز لا يفنى/ هدية لأمي/ عاقبة الكذب/ المسامح كريم/ الأرنب الأزرق/ الحمار الصبور/ حلوى العيد/ سن الغزال/ سيارة العم سعيد/ شبح في الغرفة/ صفارة النجدة/ في غابة البلوط/ ليلي تدخل المدرسة/ هجوم النحل/ الطفلة العنيدة/ المفاجأة/ في بيت الجيران/ نجيب العجيب/ ليمونة جدي/ العطر المتبخر/ شجرة العصافير/ كرمة العنب/ مغامرات رامي (مجموعة قصصية)/ وسيم يبحث عن جدة/ المهرج فوفو/ زيتونات جدتي زهرة/ صاحب المظلة السوداء/ نظارة بانه/ جاد وجود والأرنب لولو، وهي القصة محط الدراسة والتحليل.

4. 1 تقديم القصة:

تقع قصة "جاد وجود والأرنب لولو" في (16) صفحة من الحجم الصغير، يتزيّن غلافها برسومات جميلة ومعبّرة من الوجهتين الأمامية والخلفية، وفي الصفحات الداخليّة كذلك، وهي رسومات تعبر وتعكس وتجسّد أحداث ومشاهد القصة، صمّمها الرّسام "مختار دراوي"، صدرت سنة 2022م عن دار الإخلاص والصواب للطباعة والنشر والتوزيع الواقعة في ولاية وهران الجزائرية.

تتحدّث القصة عن الطفل الصغير "جاد" الذي عاد إلى منزله باكيا بعد أول يوم دراسي له مع أخته "جود" في مدرستهما الجديدة⁹، بعد تعرضه للسخرية والاستهزاء من قبل زملائه، بسبب خصلات شعره البيضاء في مقدمة رأسه، ولهذا يقرر عدم العودة إلى المدرسة، فتقصّ له والدته "حنان" قصة الأرنب لولو، لتنبثق عن القصة الرئيسية قصة ثانوية بطلها الأساسي من الحيوانات، كوسيلة تربوية تلجأ إليها الكثير من الأمهات، وباعتبارها أسلوبا من أساليب التربية الإيجابية، حيث تحمل تلك القصص العبر والحكم التي يستفيد منها الأطفال، وتنمي وعيهم وتزيد من ذكائهم بشكل كبير.

وتتحدث القصة الثانوية عن أرنب صغير جميل يدعى "لولو" يعيش في أطراف الغابة، وبسبب ضعف نظره يقع في بركة ماء كبيرة أثناء لعبه وقفزه، ورغم محاولاته للخروج من هذه البركة إلا أن كثرة الوحل العالق بقدميه منعه من ذلك، فيشعر بخوف شديد وخجل كبير بسبب سخرية صغار الأرانب التي أحاطت به ضاحكة مستهزئة، حتى أقبلت إليه أمه "أرنوبة" وأنقذته، فقرر البقاء في جحره المظلم البارد وقضاء أيامه فيه، وهو ما أثار حزن والدته التي ظلت تشجعه وتقوي عزيمته وتدفعه لمواجهة مخاوفه، غير أنه استسلم لخوفه وانزوى في جحره منعزلا عن الغابة وسكانها.

حتى جاء اليوم الذي شعر فيه بالقلق بسبب تأخر والدته عن موعد رجوعها للجحر، فخرج باحثا عنها في الغابة، وأثناء ذلك تلمّس صخرة كبيرة وتمدّد فوق العشب الطري المنعش، واصطدم بالشجرة الخشنة، وبّلّ رجليه بماء النهر العذب وشرب من مائه المنعش، واستنشّق روائح الأزهار الزكية وجمع منها باقة ناعمة رقيقة هدية لأمه، وأثناء طريق العودة استمتع بهبوب شديد للريح، وحين وصل أمام الجحر وجد أمه في انتظاره وكلها سعادة بعد أن نجحت حيلتها، فقدم لها الأزهار وأخبرها بكل شيء جميل صادف خلال بحثه عنها، وقد زال خوفه وقرر أن يكون قويا وشجاعا ولن يتأثر بأذى الآخرين، وهو ما جعلها تشعر بالافتخار والسعادة. وبعد انتهاء الأم حنان قصتها عن الأرنب لولو أظهر ابنها "جاد" تأثره بالقصة فأفصح عن قراره بالعودة إلى المدرسة بكل قوة وشجاعة.

4. 2 تحليل العناصر السردية للقصة:

بالنظر أولا إلى عنوان القصة نجد أنه انقسم إلى عنوان رئيسي "جاد وجود" وإلى عنوان فرعي ثانوي "والأرنب لولو"، مع تدعيم الواجهة الخلفية لغلاف القصة بموجز إشكالي للقصة تقول فيه الكاتبة: "جاد طفل

مختلف عن الأطفال الآخرين، يتعرض إلى مضايقات من طرف زملائه في المدرسة، فيعود باكيا إلى البيت، يا ترى هل يبقى حزينا بعد أن تحكي له أمه قصة الأرنب الصغير لولو؟¹⁰، هذا الموجز الذي يختصر لنا موضوع القصة عامّة، والذي يتمحور حول ظاهرة التمر المدرسي، وكيفية مواجهتها وعلاجها نهائيا.

كُتبت هذه القصة بلغة جميلة وسلسة وبأسلوب أدبيّ حلو، اعتمدت فيها الأستاذة "جميلة يحيوي" على الفصحى، في قالب سردي يتضمن مقاطع حوارية تراوحت بين الحوار الخارجي بين شخصيات القصة (الأم حنان وابنها جاد) و(الأم أرنب وابنها لولو)، والحوار الداخلي بين الشخصية الرئيسية ونفسها (الأرنب لولو ونفسه)، كما اعتمدت لوحات وصفية عديدة جاءت على سبيل وصف الحال والوصف المادي والوصف المعنوي لشخص القصة: "أرنب بري فروه جميل ناعم، أذنان طويلتان، وعينان عسليتان واسعتان، تلمعان ككرتين من البلور"¹¹، كل ذلك ضمن إطار زمكاني محدد ترسل من خلاله الكاتبة رسائلها التربوية وتبث قيمها الاجتماعية وأهدافها الثقافية، تكتب للطفل وتمنحه المعرفة، وتعلّمه طرائق مواجهة الصعاب ليهتدي بها في واقعه الحياتي.

وأهم ما يميّز هذه القصة هو السلسلة وعنصر التشويق حيث يقرأها الصغير والكبير بشغف مستمر حتى النهاية، فالقصة غير ممّلة يمكن للطفل استيعاب كل فقراتها ومشاهدها، كما يمكنه فهم أهدافها التربوية والتعليمية والتثقيبية، والاستفادة منها في حياته وسلوكه اليومي وتصرفاته، فهي قصة واقعية تتشابه مع أحداث قد تقع حقيقة في مجتمعنا، تقدم خلالها الكاتبة العلاج الناجع والحلّ لظاهرة التمر المدرسي.

وقد استطاعت الأستاذة جميلة يحيوي أن توصل الرسالة للجميع، للأهل وللأطفال والتلاميذ وللاساتذة في المدرسة، على أحسن وجه وبكلمات مختصرة وطابع قصصي جميل يتلاءم ويتناغم مع وجدانيات الطفل المتمدرس وحساسيته.

4. 3 فعالية الخيال كآلية سردية:

تعتمد قصص الأطفال كثيرا على الخيال من خلال سرد وقائع يجسد أحداثها الحيوانات، إذ تتنوع وتتعدد استخداماته وتختلف حسب دور كل حيوان في القصة، طبقاً لأدوارها الواقعية في الغابة، ويفرح الأطفال كثيرا عندما تروي لهم أمهاتهم قصة أبطالها من الحيوانات، وهو ما يفسّر تجاوبهم السريع واستيعابهم لمضامين السرد الحكائي وما يحمله من عبر ودروس وتوجيهات.

وتحمل كلّ قصة الحكمة والعبرة التي تريد الأم أن توصلها للطفل بشكل غير مباشر، فقصص الأطفال التي تنمّص الحيوانات دور الأبطال في سير أحداثها تجعل الطفل يذهب بخياله بعيداً، فيشعر وكأنه جزء من أحداث تلك القصة، ذلك أنّ الكثير من الأطفال يحبون الحيوانات بشدة وخاصة الأليفة منها، ويبتهجون كثيرا حينما يستمعون إلى قصص أبطالها من حيواناتهم المفضلة، وحينما تسرد الأم عليهم تلك القصص يتخيلونها ويتخيلون أنفسهم بها وبأنهم من أبطالها، الأمر الذي يجعلهم منتبهين بشدة من بداية القصة وحتى نهايتها.

فبتوظيف الكاتبة الشخصيات الخيالية داخل القصة، من خلال الشخصية الحيوانية وتحميلها دورا خاصا بها، ساهمت في تفعيل عنصر التشويق، ذلك أنّ "علاقة الطفل الوجدانية بالحيوانات أيسر على الفهم من علاقته بالإنسان، وهذا ما أثبتته الكثير من الدراسات أن أغلب القصص التي اجتذبت الأطفال هي من قصص الحيوانات"¹²، فمن المعروف أنّ الخيال القصصي ينمي لدى الأطفال المعرفة بالكون والكائنات والطبيعة وعناصرها.

ومن هذا يتحقق الاقتراب الوجداني للطفل من القصة، وترتفع نسب التفاعل العقلي معها، فالقصص الخيالية تجعل الطفل أكثر وعيا وإدراكا للعالم، وأكثر تقبلا لرسائله الثقافية.

5. أنساقية المضامين السردية:

تحمل القصة القصيرة دلالة لا بد من الكشف عنها، من خلال دراسة التسلسل السردى الحاضر في سياق الحكى، ويتحقق ذلك باستخراج المضامين الداخلية للمادة القصصية.

فعلى مستوى مظهر الخطاب تعبر القصة القصيرة "جاد وجود" عن تتابع للأحداث لما تقوم به الشخص داخل القصة، من خلال مشاركتها في تطوّر الحكمة القصصية، وفي علاقاتها ببعضها وفاعلية الأدوار التي تقوم بها.

أما على مستوى الرسالة الميثوقة فتحمل هذه القصة الموجهة للأطفال كغيرها من الأنواع السردية معنى عميق يتصل بالمقاصد الأدبية وعلاقاتها بالمجتمع التي تداولت فيه، فكلّ قصة تمثل مساراً متنامياً يعبر به عن الوسط الثقافي الذي أنتجها، من خلال مظاهر تتعلق بالمكونات السردية للعمل القصصي.

5.1 دلالة الشخص المرجعية "الأم":

قدمت الكاتبة جميلة يحيوي صورة جميلة وإيجابية ومشرفة للأم، في القصة الأصلية والثانوية، فالأم "حنان" كان لها الدور العظيم في معالجة الحالة النفسية التي عانى منها ابنها "جاد"، من خلال سردها لقصة الأم "أرنوبة"، والتي اتخذت هذه الأخيرة من تأخرها حيلة دفعت بها ابنها "لولو" لمواجهة مخاوفه وخجله من ضعف بصره وسخرية الآخرين منه، كعلاج لانعزاله وانطوائه على نفسه، فكلتاها ساهمتا في تحقيق التوازن النفسي للفرد المتضرر من أسرتيهما، كإشارة ضمنية من الكاتبة للدور الفعال الذي تخوضه الأم من أجل حماية أسرتها وحلّ مشاكل صغارها، ودفع الأحزان عن قلوبهم وسدّ الفراغ العاطفي الذي قد يصيب فرداً من أفراد أسرتها.

فمن خلال هذه القصة تبرز قيمة الأم وموقعها الخاص في الأسرة والمجتمع، باعتبارها المعين في مواجهة الصعاب، والمرجع الذي تستند إليه بقية أفراد الأسرة، والعنصر المساعد في القضاء على المخاوف. وما الأم إلا منفذ الكاتبة لتأكيد دور الأهل في خلق الجو العائلي والأسري السليم والطبيعي للطفل، في رسالة إنسانية جميلة تدعو فيها الأهل أن يحبوا أبناءهم ويسعوا لتحقيق سعادتهم، ويحرصوا دائماً على سلامة نفوسهم وقلوبهم وعقولهم من كل ما قد يؤدي عملية بناء شخصيتهم المستقبلية.

5.2 رمزية الأرنب الصغير :

اعتمدت الكاتبة في توظيف قصص الحيوانات على شخصية الأرنب لولو، والذي يحيل في دلالة مادية إلى الضعف البدني، الذي يقابل في الصورة الإنسانية ضعف الطفل فكراً وصغره سنه وقلة نضجه في تفسير المشكلات التي تعترضه يومياً.

وفي الصورة المقابلة يشير اختيار الكاتبة للأرنب في دلالة معنوية لسماته وخصاله المميزة، والتي تعبر عن قدراته الذهنية وسرعة بدهته ونجاعة حيله في التخلص من المعضلات التي قد تواجهه في تصادماته مع حيوانات الغابة، والتي يخرج منها منتصراً دائماً، وهو ما يقابل في التقابل البشري قدرات الطفل الذهنية واختلافه وتميّزه وخصوصية مهاراته الفكرية في التغلب على المواقف الصعبة والحرجة دون داع للمواجهة.

5.3 دلالة البنية المكانية "المأوى":

للبعد المكاني في السرد القصصي دلالات متعددة، إذ يحيل الحيز المكاني في القصة إلى عدة أماكن بدءاً بالمنزل الذي عاد إليه جاد وقرر عدم الخروج منه، باعتباره أول مكان يخطر في الأذهان حين يشعر الإنسان صغيراً كان أو كبيراً بالرفض وعدم الانتماء للوسط، فهو مكان العيش والإيواء الذي يمنحنا الشعور بالألفة والانتماء والتقبل والاستقرار النفسي، وهو الأمر الذي التزمته الشخصية الخيالية "لولو" حين أحست بالخوف الشديد والخجل الكبير، إذ عاد إلى الجحر حزينا وقرّر أن لا يخرج منه أبداً¹³، حتى أصبح يقضي كلّ أيامه فيه. لذا يعد المنزل والجحر في هذه القصة مهرب الشخصيات ومكان الاختباء باعتباره حصناً للحماية ودرعاً لحفظ النفس من الآخرين، فأضحى في انغلاقه ملجأ الضعفاء وموطن انزعاجهم عن العالم، وتجسيدا لعدم الرغبة في مواجهة المخاوف.

وفي الصورة المقابلة تتفتح أفق الشخصية الخيالية "لولو" بفضل انفتاح حيز مكاني مغاير هو الغابة، الذي يحمل دلالات الغموض والأسرار والمخاوف، وبخروجه للبحث عن والدته في الغابة يواجه "لولو" مخاوفه ومشاعره السلبية بكل إقدام وشجاعة، ويهزم شعوره بالخوف والخجل والقلق والضيق، ويمشي في الغابة متجاوزا ظلمة الجحر ومتغلبا على الوحدة والعزلة التي يعيشها، ليجدد رغبته في التعايش السلمي مع وسطه، الذي حقق له تحصيل معرفة وجودية بعناصر الطبيعة رغم ضعف بصره، فاكشف الصخرة والشمس والعشب وماء النهر والأزهار والرياح والهواء النقي¹⁴، وهو ما أثار رغبته على الانفتاح مرة أخرى بكل شجاعة وقوة.

5.4 منظومة المبادئ والقيم الثقافية:

نص القصة ذو طابع اجتماعي واقعي يعالج معاناة الأطفال من ظواهر السخرية والاستهزاء والتنمر في الوسط المدرسي، وبيان دور الوالدين المهم في معالجتها، بضرورة تقوية شخصيات الأبناء من خلال السرد الحكائي، كوسيلة تربوية تعزز الثقة بالنفس.

نتناول هذه القصة في مضمونها قضية بالغة الأهمية وهي قضية "الانكسار النفسي" الناتج عن الشعور بعدم تقبل المجتمع للفئات المختلفة، وفقدان هذه الشرائح الاجتماعية الرغبة في التواصل الاجتماعي جراء العقد النفسية التي تشكلت في دواخلهم، وتفضيل الوحدة والانعزال في ظل عدم معالجة هذا التأزم العاطفي.

وبمعالجة الكاتبة لهذا الموضوع الشائك تحاول تضمين قصتها أبعادا ثقافية، تدعو من خلالها كل فئات المجتمع لضرورة التحلي عن السلوكات السلبية الناتجة عن الاستهزاء بالناس أو ازدراءهم فعلا أو قولاً أو إشارة، بقصد أو عن غير قصد، في حالة الجد أو الهزل، ففي ذلك شر وقسوة واستهتار بمشاعر الغير، قد يفضي إلى عدم رغبة الآخر المختلف في المشاركة والتواصل والحياة.

كما تحمل مضمرات القصة إشارات إلى ضرورة مواجهة الصعاب وحتمية التحلي بالثقة وتجنب الهروب، وتقوية النفس بعدم التأثر بالأراء السلبية للناس وأفكارهم السيئة، وفيها حث على أهمية بناء الذات وصناعة شخصية إيجابية فاعلة غير انفعالية، وتصحيح الأفكار الخاطئة، ومحاولة استيعاب الآخرين وتقبل اختلافهم، وهو ما حصل في نهاية القصة حين قرر "جاد" العودة إلى المدرسة، قاطعا وعدا لوالدته بأن يكون شجاعا وقويا، فعم في الموقف الختامي الشعور بالافتخار والبهجة وطمست كل المشاعر السلبية التي افتتحت بها الكاتبة قصتها.

6. خاتمة:

تسعى القاصة الجزائرية جميلة يحيوي عن طريق قصصها الواقعية القصيرة المعاصرة تنمية شخصيات الأطفال، جسيما وعقليا ونفسيا واجتماعيا ولغويا، وإعدادهم لتحمل مسؤولية الغد بعزيمة ووعي، وذلك بصقل سلوك الطفل ضمن منظومة القيم والقوانين التربوية، وتربيتهم تربية أخلاقية إيجابية، تجعل منه فردا اجتماعيا يتواصل ويختلط بالآخرين دون أن يضحى بصفاته، متخذاً موقعه ضمن مجتمعه ومقدرا دوره في نشر المحبة والخير والعدل والمساواة بين أفراد.

وقد تجاوزت قصص الأطفال مفهومها كمبنى سردي وأسلوب خيالي تربوي حدود الظاهرة الأدبية، وباتت ذات أبعاد ثقافية عالمية تسعى لإحلال الاطمئنان الروحي والسعادة النفسية وبعث روح التضامن والتعاون بين الأطفال، بعيدا عن الكراهية وحب النفس والسخرية والتنمر، بما يكسب الأطفال المهارات المختلفة التي تساعد على الإنتاج أولا، وعلى كسب الثقة بالنفس ثانيا، فتزدهر ملكاتهم ومهاراتهم ومواهبهم، كما تنمي فيهم الشجاعة والقوة والجرأة في مواجهة المخاوف والمشكلات التي تعترض يومياتهم، في البيت أو المدرسة أو الشارع، فينشأ بذلك جيل جديد نستطيع الاعتماد عليه مستقبلا، جيل مزود بالقيم الإنسانية الرفيعة.

7. الهوامش:

- 1 - حسن شحاتة: أدب الطفل العربي، دراسات وبحوث، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط2، 1994، ص 12.
- 2 - أحمد طعيمة: أدب الأطفال في المرحلة الابتدائية النظرية والتطبيق، تأليفه وتقويمه، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 1998، ص 42.
- 3 - ينظر: عبد الحميد بورايو: الحكايات الخرافية للمغرب العربي، دراسة تحليلية في معنى المعنى لمجموعة من الحكايات، وزارة الثقافة، الجزائر، ط1، 2007، ص 19.
- 4 - ينظر: عيساني بلقاسم وآخرون: أدب الطفل، واقعه وإشكالاته وآفاقه، منشورات مديرية الثقافة لولاية المدية، دط، 2009، ص 29.
- 5 - الربيعي بن سلامة: من أدب الأطفال في الجزائر و العالم العربي، دار مداد، قسنطينة، ط1، 2009، ص 12.
- 6 - ينظر: سمر روجي الفيصل: أدب الرياض والأطفال والفتيان، ط1، دمشق، 2017، ص 197.
- 7 - ينظر: محمد حسني برغييش: أدب الأطفال، أهدافه وسماته، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1997، ص 40.
- * - من مواليد 31 أكتوبر 1961 بمدينة الشارقة بالعاصمة، حاصلة على شهادة ليسانس تخصص أدب عربي من الجامعة المركزية بالعاصمة عام 1984م، علمت أستاذة في الأدب العربي بالتعليم الثانوي، تكتب القصة منذ شبابها الأول، بدأت مسيرة النشر سنة 2008م ولا تزال مستمرة في التأليف القصصي إلى حد الساعة.
- 8 - المداخلة متوفرة في الرابط الإلكتروني التالي:
<https://www.shorouknews.com/news/view.aspx?cdate=26042016&id=a66c7da5-eb64-4e89-9b2f-5f6a28ea76ce>
- 9 - جميلة يحيياوي: جاد وجود والأرنب لولو، دار الاخلاص والصواب للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، وهران، 2022، ص 2.
- 10 - القصة، الواجهة الخلفية لغلاف القصة الخارجي.
- 11 - القصة، ص 6.
- 12 - هادي نعمان الهيتي: أدب الأطفال، فلسفته وفنونه ووسائطه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، القاهرة، 1986، ص 148.
- 13 - ينظر: القصة، ص 7.
- 14 - ينظر: القصة، ص 15.